العنف في رواية (إخوة محمّد) للروائيّة ميسلون هادي

Violence in Maisaloon Hadi's Novel "Mohammed's Brother"

م.د. زينب عبدالرّضا عليّ

Inst. Dr. Zainab Abdul Redha Ali

معهد الفنون الجميلة للبنات/ ديالى

alkater33@gmail.com

المستخلص

يهدف البحث إلى دراسة العنف في رواية (إخوة محمّد) للروائية ميسلون هادي، بوصفها من الرّوايات الّتي تميزت بتناولها لأحداث العصر، والتقاطها لمظاهر العنف وإفرازاته فيه بعد دخول الاحتلال الأمريكيّ للبلاد عام ٢٠٠٣ وما بعده، كان في مقدمتها التّصفية الجسديّة، والتّهجير القسريّ، والاحتقان الطّائفيّ، فضلًا عن خلق الانقسام بين أبناء المجتمع العراقيّ الواحد. إنَّ تسمية الرّوائيّة لروايتها بـ(إخوة محمّد) يكشف عن القصديّة في خلق ثقافة وطنيّة ولحمة وطنيّة في عراق ما بعد الاحتلال الأمريكيّ في محاولة منها لنبذ التّفكك الوطنيّ، وقد استعان البحث في فضاء تشكله النّصّي بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ لدقته في وصف الظّاهرة المدروسة وتحليلها، أَمّا عن أَبرز النّتائج الّتي توصل إليها البحث فتمثلت بعناية الرّوائيّة في الكشف عن آثار العنف على الإنسان العراقيّ بفقدانه لجسده، واضطراب نفسيته، وانتهاك حقوقه، والمساس بحريته، وهويته. إنَّ العنف الجسديّ والنّفسيّ هما من أشكال العنف البارزة الّتي تعرضت لها أغلب شخصيات الرّواية، مع تركيز الرّوائية على التّحولات الّتي طالت الأمكنة المفتوحة، وبيان أثر العنف على المدينة وما آلت إليه طرقاتها، وشوارعها، وأبواب بيوتها، وحدائقها بعد

دخول الاحتلال الأمريكيّ للبلاد، وهي آثار قد أسهمت في تغريب المدينة في محاولة لطمس هويتها الحضريّة المعهودة إليها، ومن الله التّوفيق.

الكلمات المفتاحيّة: الرّواية، الرّوائية، العنف، المكان، الإنسان.

Abstract:

This paper aims to study violence in Masialoon Hadi's novel (Mohammed's Brothers which is described as a novel dealing with contemporary events. It picks up the characteristics of violeuce and its effects in the society after the American occupation of Iraq in 2003.

This occupation is characterized by killing people, immigration by force, communal congestion and the division between the Iraqi society. The writhe named the novel "Mohammed's Brothers" reveals the intention of the writer to create national culture and unity in Iraq after the American oupation. The novel occurs within the scope of descriptive analytic approach since she is accurate in the description of the phenomenon under study and its analysis. The most important conclusions the study arrives at are represented by the revealana of the violence effect on Iraqi society since the Iraq human feels that he/ she lost his body, psychological disturbance, sufferings; losing his identity and rights, etc. body and psychologlacl violence is one of the prominent violence forms which most of the novel characters are exposed to and suffers from The novel focuses on the open areas transformations and showing the violence effects on city and the fate of its roads, streets, houses doors, gardens, etc after the American occupation to Iraq which resulted in city ruin in atrial to deleate it's civilization identity.

Opening words: Novel, Novelist, Violence, Place, Human.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شهدت المساحة الأدبية العراقيّة منذ دخول الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ وما بعده عددًا كبيرًا من النصوص الروائية الإبداعية التي اتخذت من العنف موضوعًا لها، وعلى الرغم من عنف الأزمة وشدَّتها في البلاد، إلَّا أَنَّ الرواية العراقيّة تفاعلت مع الحدث وطوعت لَهُ لغتها؛ فكانت الكتابة الروائية واعية بخطورة العنف بكُلّ مدياته، وكان السرد قويًا إلى أعمق الحدود؛ فغاص في أعماق الإحساس والشعور، فالرواية هي الأقدر على احتواء هموم الإنسان، والتجربة الإنسانية والتعبير عنها؛ لما تمتلكه من مقومات البُعد الوظيفي المأساوي، والقدرة على تجسيده فنيًا؛ الأمر الذي دفع بنا إلى دراسة العنف في رواية (إخوة محمد) للروائية ميسلون هادي؛ فهي من الروايات التي اتخذت العنف مرجعًا لها، فضلًا عن تناولها لمختلف القضايا التي أنتجها العنف؛ فقد استطاعت الرواية أَنْ تتماشى مع واقع البلاد المأزوم، وهي تنهل مضمونها من محنة الوطن بعد دخوله في دوامة العنف إثر دخول الاحتلال الأمريكي للبلاد، وقد استعان البحث في فضاء تشكله النصّي بالمنهج الوصفي التحليلي لدقته في وصف الظاهرة المدروسة وتحليلها من جهة، ولتناسبه مع طبيعة الموضوع بوصفه ظاهرة اجتماعية من جهة أُخرى، وقد اشتمل بحثنا على مقدمة ومبحثين وخاتمة، خصص المبحث الأَوّل: لدراسة مفهوم العنف وتطرقنا إلى بيان أَبرز أقسامه ودور الرواية المعاصرة في رصد موضوعه بوصفها الجنس الأدبي الأنسب للتعبير عن الأزمة التي عصفت بحياتنا المعاصرة، فبرز العنف ثيمة مهيمنة على العديد من النصوص الروائية العراقيّة بعد عام ٢٠٠٣ ومن بينها رواية (إخوة محمد)، أَمّا المبحث الثاني فقد خصص لدراسة أثر العنف على الإنسان والمكان الذي يقطنه؛ إذ عنت الروائية بتسليط الضوء على كُلّ ما يفقده الإنسان عندما يمزق الوطن بعد الحرب والعنف، ثمَّ ختمنا دراستنا بأهم النتائج التي توصل إليها البحث، وبكشف بالمصادر والمراجع.

المبحث الأَوّل

مفهوم العنف

تُعدُّ ظاهرة العنف من الظواهر القديمة الملازمة للإنسان، والمحايثة لوجوده؛ فهي تمتدُ بجذوها إلى عصر تدوين التاريخ ومنذُ بدء الخليقة ولحظة الوجود الإنساني على سطح الأرض، وما قصّة مقتل قابيل لأخيه هابيل إلَّا مثالًا أوّليًا للعنف الذي مارسهُ الإنسان ضد أخيه الإنسان، وقد اختلف الباحثون في تعريفه رُبَّما لما يبعثه تعريفه

من إحساس بانعدام السكينة والارتياح ولارتباطه بالعديد من الظواهر، مثل: الإرهاب والعنف، والتطرّف والعنف، والسياسة والعنف، وغير ذلك كثير، وقد ورد في معجم لسان العرب تعريفًا لغويًا للعنف بأَنَّهُ: ((الخرق بالأمر وقلّة الرفق به وعليه، وهو ضد الرفق، يُقال: أعنفته تعنيفًا أي عيرته، ولمته، ووبخته بالتقريع، والعنيف: الشديد القول)) (منظور، ٢٠٠٣، الصفحات ٣٠٣-٣٠٤)، فكلمة (عنف) في معناها العام تعني: الشدّة والقسوة، أَمّا في القاموس الغربي فنجد كلمة (Violence) تعني: ((إظهارًا عفويًا وغير مراقب للقوّة كرد فعل على استخدام القوّة المتعمدة)) (فهمي، ٢٠١٦، صفحة ٥٠)؛ فالعنف فعل عفوي تستخدم فيه القوّة ردًّا على ما يمارسهُ الطرف الآخر للقوّة عمدًا، وتتعدد المدلولات في السياق الاصطلاحي لمفهوم العنف؛ إذ يعرف جميل صليبا العنف في معجمه الفلسفي بأَنَّهُ: ((مضاد للرفق، مرادف للشدّة والقسوة، والعنيف (Violent) هو المتصنف بالعنف)) (صليبا، ١٩٨٢، صفحة ١١٢)، فالعنف يعني: استخدام الشدّة والقسوة، وعلى الرغم من الصعوبة التي يجدها العلماء في ضبط مفهوم العنف، إِلَّا أَنَّ بعض علماء الاجتماع توصلوا إِلى تعريف العنف بأَنَّهُ: ((سلوك أو فعل يتسم بالعدوانية يصدر عن طرف قد يكون فردًا أو جماعة، أو طبقة اجتماعية، أو دولة؛ بهدف استغلال وإخضاع طرف آخر في إطار علاقة قوّة غير متكافئة اقتصاديًا، واجتماعيًا وسياسيًا مِمَّا يتسبب في إحداث أضرار مادية، أو معنوية، أو نفسية لفرد أو جماعة أو طبقة اجتماعية أو دولة أُخرى)) (عبدالوهاب، ١٩٩٤، صفحة ١٦)؛ فالعنف سلوك عدواني تكون الغلبة فيه للأقوى والأدهى مِمَّا يتسبب بإلحاق الأضرار المادية، والنفسية، والاجتماعية للطرف الآخر، وعرف العنف أيضًا بأَنَّهُ: ((فعل ممنوع قانونيًا وغير موافق عليه اجتماعيًا)) (غيث، ٢٠٠٢، صفحة ٢١٣)؛ فالعنف يدلّ على كُلّ الأعمال المخالفة للقانون، وأعراف المجتمع وقيمهِ، وجاء في علم النفس تعريفًا للعنف بأَنَّهُ: ((نمط من أنماط السلوك ينتج عن حالة إحباط يكون مصحوبًا بعلامات التوتر ويحتوي على نية مبيتة لإلحاق ضرر مادي أو معنويّ بكائن حي أو بديل عن كائن حي)) (شكور، ١٩٩٧، صفحة ٣٢). يتبيّن جليًا بأَنَّ العنف نمط سلوكي يتضمن النية المبيتة لإلحاق الضرر بالإنسان أو المكان أو الممتلكات، ومن الجدير بالذكر مشروعية العنف؛ إذ ما كان الهدف منهُ الدفاع عن حقوق الإنسان، وقد يكون غير مشروعًا إذا ما ((استعملت فيه القوّة بصورة غير قانونية للحصول على شيء مرغوب فيه)) (يعقوبي، ١٩٨٨، صفحة ١١٦). إِنَّ القانون يمنع استعمال العنف لمساسه بحقوق الإنسان.

لقد تعددت الآراء واختلفت فيما يتعلق بأقسام العنف؛ فمنهم من قسمه على وفق الأداء على قسمين، وهما:

أ. العنف الفردي: وهو العنف الذي يؤذي فيه الفرد نفسه بأنْ يُقدم على الانتحار أو تعاطي المخدرات والكحول حدّ الإدمان (القريشي، ٢٠٠٤، صفحة ٤٣٦)، فيبدو العنف بمثابة وسيلة لعقاب النفس يكون المتضرر الوحيد هو الشخص ذاته.

ب. العنف الجماعي: وهو عنف يمارسه أكثر من شخص بالنيابة عن مجموعة سياسية أو دينية تحقيقًا لرغباتها ومصالحها، مثل: الإبادة الجماعية، والحروب غير الأهلية، والهجمات الإرهابية.

إلَّا أَنَّ هنالك من قسّم العنف على قسمين آخرين يتمثلان بـ:

أ. العنف المحلي: ويكون بين أفراد الجماعة أو بين أفراد الأسرة داخل الوطن أو الجماعة ذاتها.
ب. العنف الدولي: يبرز في شكل الحروب بين الدول أو فرض عقوبات دولية (نوار، ٢٠٠٣، صفحة ١٨٣).

فيبدو أَنَّ التقسيم للعنف يعتمد على أساس المواقع أو الأمكنة، إلَّا أَنَّ التقسيم الغالب والمتكرر في العديد من البحوث والدراسات هو تقسيم العنف على وفق الشكل والمتمثل بـ:

أ. العنف المادي: ومن ضمنته العنف البدني أو الجسدي، ويتضمن جميع الأفعال الموجهة ضد المُعنف بهدف إلحاق الأذى به سواء بالضرب أو الجرح أو القتل باستخدام السلاح أو غيره مهما كانت درجة الضرر، ويعرف بأَنَّهُ: ((الإكراه المادي الواقع على شخص لإجباره على سلوك التزام ما)) (أعواج، ٢٠١٥، صفحة ٣)، ويشتمل العنف المادي إلحاق الأذى بالمباني والممتلكات العامة أيضًا.
ب. العنف النفسي: ويعرف بالعنف المعنويّ ويدخل ضمنه التهديد والوعيد وإثارة القلق النفسي مِمَّا يسبب الإحساس بعدم الاستقرار والأمان (الأحمد، ٢٠٢١، صفحة ١٣) (القريشي، ٢٠٠٤، صفحة ٤٣٦)، وعُرِّفَ بأَنَّهُ: ((أي فعل مؤذ نفسيًا وعاطفيًا دون أَنْ تكون لَهُ أضرار جسدية)) (عوض، ٢٠١٤، صفحة ٥٢).

إنَّ العنف النفسي يمس دواخل الإنسان المُعنف ومشاعره الكامنة، وهو عنف قد لا يقل خطورة عن العنف الجسدي، وَمِمَّا تجدر الإشارة إليه بأَنَّ العناية بظاهرة العنف لم تقتصر على ما تَمَّ ذكره من حقول المعرفة من لغة، وفلسفة واجتماع، وعلم نفس فقد أولى العديد من كُتّاب الرواية الغربية والعربيّة اهتمامهم بها؛ لكون العنف من الظواهر الخطيرة والمؤلمة الباعثة على الإحساس بعدم الأمان والقلق، والخوف؛ ولذلك نجد أَنَّ العديد من الروايات العربيّة اهتمت بـ((تشخيص حالة الواقع العربيّ، المنتشي بالألم والمستيقظ يوميًا بالتأوه والأسى؛ ليعيش الحياة بالموت، والموت بالحياة بالنظر إلى ما يغيظه من صور دراماتيكية، ويستفزه من مناظر موجعة لمظاهر العنف المنتشر في وجودنا)) (فيدوح، ٢٠١٨، صفحة ١٠).

إنَّ للرواية العربيّة المعاصرة طريقة خاصة تنماز بها عن سائر الفنون لقول الحياة ورسم الإنسان ومصيره، وكشف محنته وآلامه على وفق نسق حكائي ورؤية تختلفان من كاتب لآخر، ومن عصر لآخر؛ فرواية العنف هي

الرواية التي عكست الواقع الاجتماعي المأزوم الذي كابده أفراد المجتمع العربيّ والتجربة التي عاشها الروائيون، فأفردوا للعنف حضورًا في أعمالهم الإبداعية؛ فراحَ بعضهم يتعمق بالبحث في جذوره الأولى، في حين اهتم الآخرون بالوقوف على بيان آثاره السايكولوجية والاجتماعية على الإنسان؛ فحضر التفسير الاجتماعي، والسياسي، والتأريخي، كما اهتم العديد منهم بكشف السلوك الدموي الذي يلجأ إليه المُعنِف مع الآخر بدافع الانتقام والسيطرة؛ فمن الروائيين العرب الذين كشفت رواياتهم عنف المحتل نذكر غسان كنفاني، وإميل حبيبي، ورضوى عاشور، وواسيني الأعرج، وأحلام مستغماني، وفضيلة الفاروق، والعدد كثير ومن العراق عبد الرحمن مجيد الربيعي في روايته (نحيب الرافدين) التي تقطر ألمًا وعذابًا، وأحمد السعداوي في (فرانكشتاين في بغداد)، وأنعام كجه جي في روايتها (الحفيدة الأمريكية)، ولطفية الدليمي، وميسلون هادي، وغيرهنَّ كثير.

لقد حاولت الرواية العراقيّة بعد عام ٢٠٠٣ أَنْ تضع يدها على جرح العراق النازف بآلاف الشهداء، وَأَنْ تستعرض كُلّ أقسام العنف؛ فوجدت الأحداث الحاصلة بكُلّ ثقلها طريقها إلى الروايات المعاصرة؛ فكان من الصعب أَنْ يتجاهل الكاتب العراقيّ مظاهر العنف التي عاشها في بلاده، ولاسِيَّمَا بعد دخول الاحتلال الأمريكي للبلاد؛ فنبضت روايته بالفاجعة ناقدة للعنف والأوضاع؛ فكانت الروايات بمثابة ((مرآة مكسورة لعوالم البشر)) (دراج، ١٩٩٩، صفحة ٢٦). إنَّ الرواية العراقيّة قد حاولت أَنْ تُبصّر القارئ بدوافع دخول الاحتلال وما تسبب به من أذى للبلاد.

المبحث الثاني

أثر العنف على الإنسان والمكان في رواية (إخوة محمد)

لقد اتخذت رواية (إخوة محمد) للروائية ميسلون هادي العنف مادة حيّة لها؛ فقد حملت جروح العنف في طياتها؛ فهي بمثابة ((صدى حسي لما بقي من أمريكا بعد انسحابها من المنطقة في المتخيّل السردي، وما ترك الاحتلال من أثر عميق في العراق بعد المغادرة)) (عمران، ٢٠١٩، صفحة ١١٥).

إنَّ رواية (إخوة محمد) قد تبنت ظاهرة العنف بوصفه ظاهرة اجتماعية عاشها المجتمع العراقيّ، وعانى منها في تأريخه الطويل؛ فالرواية أخذت على عاتقها تصوير الأوضاع المأساوية التي عاشتها البلاد، ورصد كُلّ مظاهر العنف، والظلم، والدمار من طرف الاحتلال، وتداعيات ظاهرة العنف وتأثيرها على الإنسان والمكان في الراوية، وكيف وصل العنف إلى أوجه فيها وأخرجها عن نمطية السرد الجمالي إلى السرد الفجاعي؛ فباتت روايتها مرثية حزينة ومؤلمة جمعت فيها بين الواقعي والخيالي في التعبير عن الواقع المعيش؛ فاختارت الروائية تجربة

التعبير عن بلدها العراق مع العنف خلال الاحتلال وبعده على وفق رؤيتها الخاصة من خلالِ أحداث وشخصيات متخيّلة، وفي متابعتنا لمجريات أحداث الرواية، تبيّن لنا بأَنَّ العنفين الجسدي والنفسي هما من أَبرز أشكال العنف التي أثرت على شخصيات الرواية وتسببا بأضرار جسدية ونفسية لغالبيتها وألحقا الدمار والخراب بالمكان الذي يقطنه كثيرهم.

لقد تميز العنف الجسدي باتساع مساحة ممارساته؛ فتجلى في الرواية بشكل نمط عدواني نفذ بتوفر القصد في أَحداث الضرر الجسدي الذي طالَ أَغلب شخصيات الرواية، متجسدًا بصور متعددة، منها: القتل، والخطف، والضرب، والحبس، والاعتداء على حقوق الإنسان والمساس بإنسانيته وكرامته؛ مِمَّا جازَ لنا أَنْ نؤكد بأَنَّ العنف قد ظهر في محورين أساسيين أحدهما أفقي والآخر عمودي؛ فيبرز الأفقي من خلالِ العنف الممارس ضد العديد من شخصيات الرواية وعلى اختلاف ثقافاتهم ومكاناتهم الاجتماعية؛ فكان منهم الطيار، والطبيب، والإعلامي، والضابط، والفلاح، والعامل رجل أو امرأة، ومن مختلف الأديان والمذاهب، أَمّا المحور العمودي فتبيّن من خلالِ ما قدّمته الروائية من شخصيات متباينة في مستوياتها العمرية كان قد طالَ العنف العديد منها؛ فلم يترك صغيرها أو متوسطها ولا حتّى كبيرها سنًا.

تدور الأحداث في رواية (إخوة محمد) حول زقاق من أزقة بغداد كان العديد من سكانه يحملون اسم (محمد)، تنتقل للسكن في هذا الحي روائية معروفة في الوسط الثقافي فتستقبلها شابة تدعى (أورشينا) بحفاوة مبالغ فيها؛ لتكتشف الروائية بأَنَّ (أورشينا) كاتبة روائية جديدة أنجزت روايتها الأولى للتو، وتطمح بأنْ تقرأ الروائية روايتها لتبدي رأيها فيها، فتُظهر أحداث الرواية تعلق الروائية بـ(أورشينا) وإعجابها بما قدّمته من شخصيات في روايتها، ولاسِيَّمَا شخصية (ماريا) المرأة المسيحية وما كابدته بعد هجرة أسرتها إِلى خارج البلاد وتركها وحيدة في منزلها، فضلًا عن تعلق (ماريا) بالفلاحين (عبّاس وعثمان)، اللذين تعرضا للخطف والتعنيف من قبل جماعات مُسلّحة مجهولة.

أوّلًا: أثر العنف على الإنسان في رواية (إخوة محمد) للروائية ميسلون هادي:

لقد حاولت الروائية ميسلون هادي أَنْ تؤسس لنصّ روائي يبحث عن تميز إبداعي مرتبط ارتباطًا عميقًا بتميّز المرحلة التأريخية الراهنة التي ولد من رحمها، فضلًا عن الواقعين الاجتماعي والسياسي اللذين شكلا الأرضية التي استطاعت الروائية من خلالِها أَنْ تستلهم الأحداث والشخصيات؛ بهدف قراءة الأحداث قراءة مرتبطة بالظرف الصعب الذي عصف ببلدها العراق إثر الاحتلال الأمريكي الذي طالما وصف بأَنَّهُ طاقة تدميرية للإنسان العراقيّ؛ فكانت روايتها شهادة كتبت تحت ضغط الأحداث؛ لتسجل الراهن العراقيّ، وتندد بقتل ذاتية الإنسان

وواقعه المليء بالعنف، وفي متابعتنا لأحداث الرواية يتجلّى تعرّض العديد من شخصيات الرواية للعنفين الجسدي والنفسي؛ حتّى باتَ إحساس الشخصيات بالخوف من القتل والتصفية الجسدية هو الإحساس الغالب في دواخلها على نحو ما يصفه (سفيان) الفلاح البسيط من خلالِ سرده الذاتي بعد رؤيته للأمريكان وهم يجولون بدباباتهم في شوارع المدينة؛ إذ يقول: ((فتلبسني الخوف بحيث فكرت أَنْ أتبول داخل قنينة ببسي كولا دون أَنْ أولي ظهري للشارع... ثمَّ فكرتُ أين سأرميها؟ قد يقتلونني مثلما قتلوا قاسم السباك الذي عبر الشارع يحمل على كتفه آلته ذات الأرجل الثلاث والبوري الطويل فظنوه يحمل قاذفة آر بي جي 7)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٧٩).

يكشف النصّ عن مكامن الشخصية الداخلية المليئة بالذعر والإحساس بالمحاصرة؛ فالخوف من قتل الأمريكان العشوائي للأبرياء كيفما اتفق بدا بارزًا، وتتعرض الروائية إلى سبب آخر يؤدي إلى تهديد حق الإنسان بالحياة بجرحه أو محوه والسبب ظاهرة كثرة الانفجارات التي طالما هزت العاصمة بغداد وغيرها من مدن العراق بعد دخول الاحتلال الأمريكي على نحو ما يقدّمه (سفيان) أحد الشخصيات المشاركة في الرواية مستعينًا بضمير المتكلمين؛ إذ يقول: ((ترددت أصوات انفجارات متوالية؛ لذلك جلسنا على الأرض، وغطينا رؤوسنا بأيدينا وملابسنا، وإذا بانفجار قوي يهزنا، وراحت شظايا تتطاير علينا وتصيبنا ببعض الجروح، والدماء تسيل من مكان ما في رجلي)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٠٥).

يظهر برنامج العنف الأمريكي المتجسد بتكرار سماع النَّاس لأصوات الانفجارات مِمَّا أدى إلى انعدام إحساسهم بالأمن، وغياب الطمأنينة، وعدم الاستقرار؛ فلم يعدّ حق الإنسان في الحياة مضمونًا، والمعروف أَنَّ حق البقاء للإنسان والحياة الكريمة حق لَهُ قدسية فلا يمكن ((لأحد أَنْ يمس حياته لا في جسمه ولا في روحه)) (الجابري، ١٩٩٧، صفحة ٢١٠)، إلَّا أَنَّ الإنسان العراقيّ أضحى مهددًا بإزهاق روحه وقتله في ظل الوجود الأمريكي؛ فالموت المعلن كان حقيقة واضحة أدت إلى انتشار الإحساس بالرعب بين شخصيات الرواية؛ إذ تتعرّض الروائية إلى سبب آخر من أسباب محو الإنسان وتصفية جسده في ظل انتشار ظاهرة القتل على الهوية، أو ما يعرف بالقتل الطائفي؛ فـ(عبّاس وسفيان) كانا يخفيان اسميهما؛ خوفًا من القتل على الأسماء، وهو ما يفصح عنهُ الحوار الداخلي الذي دارَ بينهما:

((– شايف عبّاس شلون هوسة ولعبان نفس؟

– ما تعرف سفيان أبوك ليش انقتل؟

– يمكن علمود اسمه)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٨).

يكشف الحوار الخارجي الدائر بين الشخصيتين عن أعداء الداخل الذين يسعون إلى تحويل البلد إلى بلد يعمه العنف والإرهاب المروعين؛ فالقتل على الهوية ظاهرة طرأت على البلاد، وتسببت بانتهاك حق الحياة للإنسان العراقيّ. إنَّ رواية (إخوة محمد) تكشف عن تسبب العنف بقتل النَّاس الأبرياء وما أفرزه الاحتلال من بروز ظاهرة السلاح المنفلت مِمَّا أدى إلى ازدياد عمليّة خطف أو اغتيال لشخصيات مثقفة وبسيطة وهو ما يسرده (سفيان) قائلًا: ((نسمع أَنَّ خباز الفرن أصابه طلق ناري... الطيار قد قتل... الطبيب قد خطف مع القاضي)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٩٨).

تستعين الروائية بالحاسة السمعية في الكشف عن واقع الإنسان العراقيّ ما بعد الاحتلال بتحولاته الكبيرة؛ فانتزعت نوعًا مستخلصًا من واقع مشتبك ومرعب بمعامله الجديدة المتولد جراء الاحتلال وهي تكشف عَمَّا أَلَمَّ بالإنسان من أحداث عنف خلقت تداعيات أفرزت انقسامًا حادًا بين مكونات المجتمع؛ فباتَ الإحساس بالخوف شاخصًا بين النَّاس على نحو ما تصفه (ماريا) المرأة المسيحية والشخصية المشاركة في الرواية؛ إذ تقول: ((الصمت ينتشر بين أناس أصبحوا يخافون بعضهم بعضًا، ويشعرون بأَنَّهم لا يمتون لبعضهم بصلة)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٣٣).

يظهر تأثير العنف على تغيّر نمط الحياة المعتاد بين سكان الحي الواحد مسببًا القطيعة، وفقدان الإحساس بالألفة بين النَّاس، وقد وصل تأثير العنف في المُعنف إلى حدّ تغيير اسمه، وشكله، وسيارته؛ خوفًا من القتل، وهو ما حصل مع (عبد الفتاح) طبيب المشرحة الذي غيّر اسمه من (محمد) إلى (عبد الفتاح) على نحو ما تسرده (ماريا)؛ إذ تقول: ((هو مستمر بتغيير شكله واسمه وسيارته مجاراة لمدير المشرحة الذي أصبح يعتمد السرية في تداول القضايا)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٥٢).

يظهر النصّ تداعيات الاحتلال وإفرازه لصراعات تسببت بأذى إنسانية الإنسان فتظهر الشخصية في تركيبتها الجدية شخصية تخاف الكشف عن الكثير من متعلقاتها الخاصة ومنها الأسماء، ولم يفلح الفلاحان (عبّاس وسفيان) من التخلص من قبضة العصابات المسلحة بإخفاء اسميهما؛ فقد تمكنت تلك العصابات من القبض عليهما، وهما في طريق العودة إلى منزليهما وهو ما تسرده (ماريا) الشخصية المشاركة في الرواية؛ إذ تقول: ((قد التزما بالاسم الجديد لكليهما، والذي لم يتبخر مع الراشديات والدفرات التي نالاها في القبو)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٩٠).

يتجلى العنف الجسدي الممارس ضد الفلاحين فباتا يعيشان رهاب القبض عليهما، وفي موضع آخر من الرواية يسرد (سفيان) لصديقه (عبّاس) ما تعرّض إليه أخوه الأوسط (عثمان) من اعتقال في عمليّة تفتيش على

نحو ما يتبيّن من خلالِ سرده الذاتي: ((أَمّا عثمان أخي الأوسط فاعتقل في عمليّة تفتيش جرت في منطقتنا... لطمت أمي على رأسها... وحذرتني من أَنْ أخبر أحدًا باسمي بعد ذلك اليوم)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٧).

إِنَّ عنف الجماعات المسلحة التي أفرزها دخول الاحتلال قد تسبب بقمع الإنسان العراقيّ لينال من حريته؛ ففقد الإنسان أبسط الحقوق مِمَّا يصيب الإنسان بـ((خيبة أمل وانتكاسة معنوية)) (باسيل، ١٩٨٧، صفحة ٦٢)؛ فيتفاقم الإحساس بتهديد حياته وأمنه والإحساس المكثف بالقلق أثناء الخروج للعمل وضرورة العودة مبكرًا؛ خشية الخطف أو القتل، وهو ما يقدّمه (سفيان) الراوي المشارك فيتبدى قلق والدته المستمر عليه عند خروجه للعمل: ((ظلت قلقة تؤكد عليّ بالعودة في وقت النهار؛ لأَنَّها تسمع عن الكثير من حوادث الخطف وقت المغرب)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٧٧).

يظهر النص عَمَّا سببه العنف من حجر حرية التنقل وإلزام الإنسان العراقيّ بالخروج في أوقات محددة وهو يقدّمه (سفيان) في سرده بضمير المتكلمين أيضًا: ((كُنا نعود باكرين وتكون الساعة الثانية ظهرًا هي الموعد النهائي للرجوع إذا أردنا النجاة بأنفسنا من المخاطر)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٧). إِنَّ في ظل ظروف القمع والحوادث المحيطة بالإنسان، وتضييق مساحة الحرية بعد دخول الاحتلال الأمريكي للبلاد بات الإنسان يشعر بالضيق والاختناق؛ مِمَّا يدفع به إِلى الهروب والتنحي بعيدًا عن وطنه إِلى أماكن أُخرى في العالم، وهو ما أقدمَ عليه (عبد الملك) زوج (ماريا) المرأة المسيحية على نحو ما تسرده: ((كان زوجي لَهُ شعر كثيف في رأسه.. أسمن مني بكثير. وسار من نبع الجدول حتّى مصبهِ فرارًا من الجحيم)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٦٥).

يكشف النصّ عن الروح الهاربة أو المتنحية بسبب العنف. إِنَّ البقاء في ظل الاحتلال، وأجواء الصراع الطائفي، ومحاربة الأقليات، يعني الجحيم فيكون قرار البُعد والغياب دليلًا على انتفاء الأمن ومحاولة اللجوء إِلى أماكن أكثر أمانًا بقصد النجاة؛ فباتت الرغبة بالهرب وسيلة تبيّن استحالة البقاء في جو يخيم عليه الرعب والخوف من القتل؛ فيتبدى لنا تسليط الروائية الضوء على كُلّ ما يفقد عندما يمزق الوطن بسبب العنف، وهو ما يتضح فيما قدّمه (عبد الملك) معللًا سبب ابتعاده عن البلاد من خلالِ ضمير المتكلم؛ إذ يقول: ((أنا أريد أَنْ ارتاح وَأَنْ أنجو بروحي وأرواحكم.. أريد أَنْ اشتري راحة بالي)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٥١).

يسهم استخدام ضمير المتكلم (أنا) في التعبير عن مكامن الشخصية الداخلية المفعمة بالإحساس بالخوف وعدم الشعور بالطمأنينة.

إنَّ الاحتلال الأمريكي وما أفرزه من ظهور جماعات مسلحة قد تسبب بتعزيز ظاهرة رفض التنوع واضطهاد أصحاب الديانات والطوائف الأخرى بدفعهم إلى الهجرة باستخدام التهديد والوعيد على نحو ما يسرده (عبدالملك) قائلًا: ((نال المسيحيون والصابئة والأرمن حصصهم من الحرب)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٦٦)، وتشارك (ماريا) زوجها (عبدالملك) في التعبير عن حال المسيحيين ودفعهم إلى ترك منازلهم بسبب استمرار العنف؛ إذ تقول: ((فلا زالَ مسيحيو الساعة يفرون إلى القرى المجاورة خوفًا من الهجمات التي ظلت تشهد منهم منذ العام الأوّل للحرب)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٥٧).

إنَّ الخوف من القتل هو ما تسبب بظهور الجماعات الهاربة من المسيحيين التي يشي إليها كلمة (يفرون) كما يدلّ استخدام الروائية للفعلين الماضيين الناقصين (لا زال – ظلت) على استمرار تلك الظاهرة المرتبطة باستمرار العنف المنتشر في أرجاء البلاد.

لقد تحوّلت أزمة الإنسان العراقيّ بسبب العنف إلى أزمة سردية؛ إذ تكشف الروائية عن تداعيات الاحتلال وهي تستعرض آثار الغزو الأمريكي على الإنسان العراقيّ على نحو ما يقدّمه (سفيان) الراوي المشارك؛ إذ يقول: ((المخاطر كانت كثيرة والأخبار سيئة... طيارون يقتلون، وأطباء يخطفون، وفنانون يتركون البلد)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٨).

تعرّضت الروائية لتداعيات العنف بأشكاله المختلفة من قتل، وخطف، وهجرة، وكلّها محن لم يسلم منها إلَّا القليل.

لقد بات العراق مسرحًا للاقتتال والأزمات السياسية، والطائفية التي أسهمت في تغذية العنف وعملت على ترويع الإنسان، وتهديد حياته بشتى الطرق؛ فتمظهر العنف النفسي في شكل بعث القلق، والتهديد للعديد من النَّاس، وهو ما حصل مع (أبي فرات) الذي يروي الراوي المشارك (سفيان) ما آلَ إليه حاله بعد ظهور جماعات كانت ترغب بهجرته إلى مكان آخر وترك منزله؛ إذ يقول: ((في كُلّ يوم يجد تهديدًا أمام بيته مع طلقة رصاص داخل ظرف ورقي)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١١١).

تستعين الروائية بالمحددات الزمنية (في كُلّ يوم) لتكشف عن استمرار أزمة التهديد التي يتعرض لها (أبو فرات) الأمر الذي يبعث على الإحساس بالقلق، وعدم الارتياح، وفي موضع آخر من الرواية يسهم الوصف المسرود، من خلالِ الراوي المشارك (ماريا) في الكشف عَمَّا حَلَّ بالفلاحين من عنف جسدي بعد حبسهما من قبل عصابات كانت تتنكر بملابس الشرطة: ((واجها الخطف سفيان كان أنفه ينزف، وعباس كان جلده يتآكل؛ لأَنَّ قميصه المتسخ امتلأ بالنمل.. ورُبَّما دخل النمل إلى جوفه)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٩١).

إنَّ الإنسان المُعنف هو: ((إنسان مُدّمر حتّى ولو بقي على قيد الحياة)) (شهاب، ٢٠٠٩، صفحة ٣٨٥). إنَّ نزف الأنف، والجلد المتآكل يوحيان إلى وقوفنا إزاء حالة انتهاك قصوى لجسد الإنسان، ومشاعره، وكرامته؛ بسبب العنف، فيظهر جليًّا اشتغال الروائية على تقديم العنف المستشري في الراهن العراقيّ؛ فقد غدا الصراع الطائفي: ((أحد العوامل الكامنة المستمرة والمحفزة لإثارة وتجديد العنف في المجتمع العراقيّ)) (حافظ، ٢٠٠٩، صفحة ٩٥).

ويتكشف العنف الجسدي بما تعرض إليه بقية المخطوفين مع (عبّاس وسفيان) بتعذيبهم مثلما حصل مع (فراس) الذي تمنى الموت على البقاء حيًا من شدّة التعذيب الذي تعرّض لَهُ، فضلًا عَمَّا حَلَّ بوالدهِ الذي قتل على يد الأمريكان في سجن أبي غريب على نحو ما يرويه (سفيان) الراوي المشارك في الرواية قائلًا: ((أصيب فراس بالتهاب في إحدى كليتيه ومضاعفات في الأمعاء، فراس كان يريد اللحاق بعبدالله اعز أصدقائه في السرداب، أبوه قتله الأمريكان بعد أهانته في سجن أبي غريب عمره اثنا عشر عامًا)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٩٢).

إنَّ العنف الذي تعرّض إليه الإنسان في رواية (إخوة محمد) لم يميز بين الشاب أو الكبير، المتهم من البريء؛ فتظهر الممارسات التعسفية التي تمارس ضد السجناء وتتوغل عميقًا في عالم السجون؛ لتكشف عَمَّا يدور في داخلها من قسوة وعنف جسدي؛ إذ يخضع النزيل إلى ممارسات عقابية قاسية قد تصل إلى حدّ فقدانه لحياته.

إنَّ التعذيب داخل السجون أو الأقبية والسراديب التي يلقى فيها المخطوفون بعد دخول الاحتلال تكون بمثابة استكمال رحلة إهانة الجسد للإنسان، وتطويع الإرادة؛ فقد يصل العنف إلى حدّ تكميم الأفواه، والحجر على حرية التعبير؛ فما عادَ أحد يستطيع أَنْ يعبر بحرية عَمَّا يجيش بصدره أو يدور بخلده، وهو آمن في ظل وجود الجماعات المسلحة التي كانت تتخلص من أي وسيلة إعلامية تعارض مصالحها أو تختلف معها في وجهات النظر على نحو ما يقدمه لنا (سفيان) الراوي المشارك في الرواية قائلًا: ((هناك صحفية مشهورة قد قتلت في سامراء بعد تفجير المرقد العسكري...، وأثناء التشييع خرج للمشيعين بعض المسلحين ليمنعوهم من الوصول إلى المقبرة)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٢).

يكشف النصّ عن غياب الثقافة الديمقراطية في وطننا إثر العنف الذي باتَ يكبح أي رأي يُعَدُّ مخالفًا لرأي من بيدهم الأمر؛ فيتجلى بوضوح أثر العنف وتداعياته على الإنسان العراقيّ بعد الاحتلال الأمريكي متمثلًا بالممارسات القسرية ومنها الحجر على حرية التعبير، فضلًا عن التصفية الجسدية، وممارسات الترويع، والاعتقال العشوائي، والسجن، والتعذيب، والهجرة، والخطف، وبث القلق والخوف، وانعدام الطمأنينة بين النَّاس، وفقدان الإحساس بالأمان؛ لتستمر حالة افتقاد الحرية بوصفها علامة بارزة في التاريخ السياسي العربيّ الحديث.

ثانيًا: أثر العنف على المكان في رواية (إخوة محمد) للروائية ميسلون هادي:

يُعَدُّ المكان عنصرًا بارزًا من عناصر العمل الروائي، والإبداعي؛ لأَنَّهُ يجسد ((مسرح الأحداث والهواجس التي تصنعها الذاكرة التأريخية)) (طالب، ٢٠٠٥، صفحة ٥٠)، وهذا ملمح يدخل في سياق وإستراتيجية الكتابة الروائية الحديثة؛ فالمكان يُسهم في ((توليد معنى النصّ الذي تعبر به الشخصية عن وجهة نظرها حيال موقف ما)) (حبيلة، ٢٠١٠، صفحة ٢٠٣)؛ فإنَّ أَبرز ما يحدد دلالة المكان في الرواية هو طبيعة العلاقة ما بين الشخصيات الروائية وعلاقتها بالمكان داخل العمل الروائي؛ فهنالك علاقة تأثر وتأثر بين كليهما؛ فالمكان عنصرٌ مركزيٌ في بناء الرواية، وقد أولى الروائيون اهتمامهم بالمكان؛ لاندماج المكونات السردية بعالمه؛ فلم يعدّ المكان ديكورًا مكملًا لعناصرها فحسب كما تناولته طرائق الكتابة الكلاسيكية؛ فالمكان في العمل الروائي هو: ((المكان اللفظي المتخيل؛ أي المكان الذي صنعته اللّغة انصياعًا لأغراض التخييل الروائي وحاجاته)) (الفيصل، ٢٠٠٣، صفحة ٧٣)؛ فالمكان في الرواية قائم في خيال المتلقي فيجب التمييز بينه وبين المكان في العالم الخارجي الذي يُسهم بدوره في تغذية الخطاب الروائي؛ فالمطابقة بين المكان التخييلي والواقعي مستحيلة؛ لأَنَّهُ: ((المكان الروائي مصنوع من الورق من خلق مخيلة الروائي)) (معلم، ١٩٤٥، صفحة ٩٢)، وتظهر إمكانية الروائي المبدع في ((عمليّة انصراف المكان عن وجوده الواقعي إلى متخيل؛ بما يعطي الرواية مديات ثقافية و رؤيوية واسعة)) (بدر، ٢٠١٢، صفحة ٢٦٣)، فمن هنا يتجلى قدرة الروائي على رسم المكان المتخيل برؤية خاصة.

إنَّ المكان هو العنصر الذي ((يعبر عن خصوصية قومية ويعكس رؤية خاصة للعالم)) (حيمر، ٢٠٢٢، صفحة ٥٨)، ويستعين الروائي بتقنية الوصف في رسم المكان، ونقل جزيئاته، وبيان علاقته بأصحابه من خلالِ اللّغة؛ ففي رواية (إخوة محمد) كان لمدينة بغداد قسطٌ وافر الذكر، فهو المكان الذي تمحورت فيه أَغلب أحداث الرواية دون ذكر القرية، رُبَّما لأَنَّ الروائية قد قضت جلّ حياتها ما بين العاصمة بغداد في العراق وعمّان في الأردن، وكانت المدينة أشبه بلوحة رسمت عليها صورًا دامية ومفزعة، وهو ما يقدّمه الراوي المشارك (سفيان) قائلًا: ((القتل والخطف في كُلّ مكان؛ بل نشبت بعض المعارك في الطارمية والدورة وشارع حيفا... الله يسترنا)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٣٠).

لقد بدا المكان/ المدينة مع كونه مكانًا مفتوحًا يدلّ على الاتساع والحرية؛ لما يمثله من مساحة واسعة مكانًا سلبيًا معاديًا برؤية (سفيان) يبعث على الإحساس بانعدام الأمن والإحساس بالخوف؛ بسبب كثرة المعارك واستمرارها في العديد من مدنها، وما تخلفه من خطف أو موت عشوائي لأُناسها؛ الأمر الذي دفع العديد من سكان المدينة إلى الهجرة؛ فتطرح الروائية إشكالية التهجير الداخلي الذي لجأ إليه العديد من سكان المدينة بحثًا عن الأمن والاستقرار وخلاصًا من القتل العشوائي أو القتل في الغالب على الهوية على نحو ما يرويه (سفيان) قائلًا:

((لم نعدّ نلتقي في حي الجامعة الذي خلا من أهله، وهجم عليه المهجرون من السُنّة في منطقة الحرية، مثلما هجّ المهجرون الشيعة من حي الجامعة إلى منطقتي الشعلة والسيدية)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٢٧).

انتقت الروائية الألفاظ ذات الدلالات الكامنة، ومنها: (خلا، هجم، هجّ)؛ فهي ألفاظ تدلّ على ترك الأمكنة وتشي إلى انتفاء الأمن منها، ومحاولة اللوذ إلى أمكنة أكثر أمانًا؛ بهدف حفظ الحياة والعيش بسلام وسط أجواء كان يخيم عليها الإحساس بالخوف والرعب من القتل الذي لم ينجُ منهُ حتّى من كان مهجرًا في زمن النظام السابق، وعاد متأملًا استرداد حقه؛ فالمعلوم عن التهجير هو: ((سياسة إكراه، وتشويه، وإرغام على مغادرة مسكن، أو بلد بسبب الحرب، أو نزاع مسلح، أو فتة سياسية، أو مخططات تهجيرية، وتطهير عرقي)) (ماركس، ٢٠١٦، صفحة ٢٣).

يتعرّض (محمد الكُردي) إلى التهجير وخسارة داره قبل دخول الاحتلال، إلَّا أَنَّهُ وبعد عودته تزاد خسارته إثر الأوضاع المأساوية التي عمّت البلاد على نحو ما تقدّمه (أورشينا) الشخصية المشاركة في تقديم أحداث الرواية؛ إذ تقول: ((بعد عودته من إيران، ودورانه في المحاكم والقضاة؛ لاستعادة بيته المُصادر، وعملت الصدف العجيبة عملها؛ فأصيب بحادث انفجار في منطقة البياع، وقضت ابنته الكبرى عليّة بذلك الانفجار)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ٨٤).

يكشف النصّ عن اتساع دائرة الفقد التي تعرض لها (محمد الكُردي) بخسارة الجسد والروح الإنسانية متمثلة بموت الابنة (عليّة)، فضلًا عن خسارة السكن؛ فتعيد الروائية صياغة الواقع المأساوي المكتنز بكمٍ هائلٍ من الأحداث الشائكة والأليمة.

إنَّ ثيمة الفقد التي سببها الاحتلال الأمريكي وتداعياته في رواية (إخوة محمد) لم تقتصر على فقدان الحياة للإنسان؛ بل شملت المكان بما يحويه من أمكنة خدمية وترفيهية على نحو ما ترويه (ماريا) الراوية المشاركة في رواية أحداث الرواية؛ إذ تقول: ((في وقت صعب كانت فيه أكثر الكاليرهات قد أغلقت أبوابها، وكذلك المسارح والسينمات وصالونات التجميل توقفت الحياة في بغداد)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٥٣).

لم تقتصر الروائية في عرضها بالتحديد العام (مدينة)، وإنَّما جاء تحديدها بغداد؛ لأصالة عاصمتها من جهة ولتأكيدها على الانتماء العراقيّ لشخصيات رواياتها؛ فبغداد برؤية (ماريا) أضحت فاقدة للحياة في زمن الحرب الصعب؛ لتحولها من مكان مفتوح إلى مكان أغلقت فيه ملامح الترفيه، وقد وصل الفقد إثر العنف إلى

فقدان النظافة والعمران للأمكنة على نحو ما ترويه (ماريا)؛ إذ تقول: ((لا نرى غير صبات الكونكريت، ولا نسمع بغير الخطط الأمنية المتتالية؛ ولكن بلا فائدة لا نظافة ولا عمران)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٣٥).

تشترك حاسة السمع مع حاسة البصر في التعبير عن مكنونات الشخصية الداخلية إزاء المكان؛ فتظهر رؤية (ماريا) المعادية لَهُ؛ لافتقاره لمعالم التحضر والعمران؛ فتظهر المدينة تعجُ بالمعسكرات والحواجز وهي تعيش رهاب التحول بدلًا عن صورها الإشراقية الجميلة والمألوفة، وهو ما ترويه (ماريا) الراوية المشاركة في تقديم الأحداث؛ إذ تقول: ((الدجاجات جاءتنا خرفان ترعى من الياس المزروع على الرصيف)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٥٤).

تكشف الروائية عن مظاهر أسهمت إلى حدّ بعيد في تغريب المدينة، ومحاولة طمس هويتها الحضرية، وفي متابعتنا لأحداث الرواية لحظنا عناية الروائية بالكشف عن العديد من التحولات المكانية التي طالت الأمكنة المفتوحة متمثلة بالمدينة، وطرقائها، وشوارعها، وأبواب بيوتها إثر عنف الاحتلال الأمريكي ودخوله للعراق؛ فـ(ماريا) المرأة المسيحية تعبر عن حزنها لفقدان شارع بيتها لمعالمه المألوفة والجميلة قبل الحرب؛ إذ تقول: ((تهجول ناس هذا الشارع الجميل بعد الحرب... وأصبح دائخًا مترنحًا مثل أهله... لا معايدات ولا زيارات ولا زردة ولا قيمة ولا حليب... لا أحد ولا ماحود)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٠٨).

لقد اكتسب المكان/ الشارع الذي يُعَدُّ فضاءً مفتوحًا يدلُّ على الانشراح طابعًا عدائيًا برؤية (ماريا)؛ فخلو المكان/ الشارع من طقوسه المعهودة منحها إحساسًا بالاغتراب نحوه، وقد شكلت الأنسنة جانبًا مهمًا من الجوانب التي تعبر عن دلالة المكان وتحولاته التي ((بدت من الناحية التقنية؛ فقد غلبت في القصّة الحديثة نتيجة طبيعية لما امتازت به من إحساس عال بالمكان؛ إذ لم يعدّ ذكره ثانويًا كما كانت الحال سابقًا؛ بل صارَ مكونًا أساسيًا وأكثر حميمية يحمل ذكريات الماضي وطموحات المستقبل)) (المرنيسي، ٢٠٠٩، صفحة ٥)؛ فلقد بدا الشارع برؤية (ماريا) إنسانًا يشبه النَّاس في دوخانهم وترنحهم إثر العنف الأمر الذي يكسب المكان أهمية بالغة؛ إذ تتماهى الشخصيات الروائية معهُ؛ فتضفي عليه من مشاعرها فيتجسد حزنها في فقدانه لمعالمه السابقة وتحوله إلى مكان يفتقد إلى الألفة، ولم تأتِ الروائية على ذكر المعالم التفصيلية المستقصية لملامح المكان؛ بل جاء وصفها انتقائيًا معبرًا عن رؤية الشخصيات لَهُ وموقفها منهُ في العديد من متون روايتها.

وتتجلى مشاعر الحزن والأسى في نفس (أورشينا) إحدى شخصيات الرواية والراوية المشاركة في رواية الأحداث وهي تصف أبواب البيوت وحدائقها قبل الحرب وبعدها؛ إذ تقول: ((لا أحد يقف في أبواب البيوت أكثرها

مهجورة وحدائقها يابسة وعندما كانا يمران فيها قبل الحرب يجدانها زاهية بالألوان والخضرة)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٣٤).

تتكشف الدلالات السلبية في النصّ حينما تنفتح ذاكرة (أورشينا) على ما تختزنه من ذكريات جميلة في مخيلتها عن أبواب البيوت الجميلة والحدائق الزاهية بخضرتها قبل الحرب مقارنة بما آلت إليه إثر عنف الحرب بما يعبر عن معنى اللا استقرار لساكني تلك البيوت؛ بسبب هجرتهم لها الناجم عن الخوف من القتل الذي تحول إلى هاجس تشعر به العديد من شخصيات الرواية، ويأخذ الطريق في رواية (إخوة محمد) وهو من الأمكنة المفتوحة بُعدهُ الدرامي لما يثيره من مشاعر الخوف في داخل الفلاح (سفيان) الشخصية المشاركة في رواية الأحداث؛ لما اختزنه من أحداث مأساوية، مثل: حادث قتل الضابط في الجيش السابق: ((الطريق السريع أيضًا أصبح خطرًا للغاية، وفيها انقتل محمد السبع زوج أم حسام؛ لأَنَّهُ كان ضابطًا في الجيش السابق)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٣٠).

يبرز دور الوعي المكاني للشخصية في تحديد دلالة المكان الذي خلا إحساسها نحوه من مشاعر الطمأنينة والألفة رغم انفتاحه؛ فيبدو تركيز الروائية على بيان أثر الواقع الخارجي على تمظهرات المكان في روايتها، وعلى ما يطرح من قضايا، ولاسِيَّمَا قضية العنف؛ فلقد قدّمت الروائية لقارئها مدينة تعيش حالة من التغيّر انعكس سلبًا على ساكنيه؛ فالتغيّرات التي طالت المدينة بعد الاحتلال قد أسهمت في محو معالمها ومنها البيوت، وهو ما تقدّمه (أورشينا) من خلالِ وصفها المسرود؛ إذ تقول: ((البيوت جميعها تحولت إلى عمارات قبيحة تشبه القلاع)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٨٦).

يتجلى التحول السلبي باستبدال البيوت الجميلة إلى عمارات عالية قبيحة، وهو تحوّل قد أجج إحساسًا بالاغتراب لدى الشخصية نحوها، ويعدّ البيت/ المكان المغلق الذي يأوي إليه الإنسان طلبًا للاستقرار والإحساس بالأمن والسكينة؛ فالبيت ليس ((مجرد مكان نحيا أو نسكن فيه، وإنَّما هو جزء من كياننا ووجودنا الإنساني)) (الإمام، ٢٠١٠، صفحة ٢٩٠)؛ فالبيت بوصفه مكانًا مغلقًا يمثل كيانًا مميزًا تعمه الألفة من الداخل، إلَّا أَنَّ البيت الذي جاء ذكره في الرواية والذي يشكل مكانًا للإقامة الآمنة كان مكتنفًا إمَّا بلحظات الخوف الذي يقلق أَمن أهله أو يبعث على الإحساس بالضجر والملل؛ بسبب الإقامة الجبرية التي قد تفرض من الخارج على ساكنيه نتيجة الحروب والأزمات السياسية الكبيرة ودخول الاحتلال الأمريكي للبلاد.

إنَّ دخول الأمريكان المفاجئ لبيوت النَّاس الآمنين بذريعة التفتيش كان سببًا في إحساس (ماريا) بالهلع والخوف؛ وهو ما ترويه بالقول: ((أشقر دخل لتفتيش البيت أَظهر فيها رشاشته يصوبها نحو الباب قبل فتحها)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٦٤).

يعبر النصّ عن رفض النفس الإنسانية لأساليب الاحتلال المعتمدة الباعثة على الإحساس بالرعب خلال التفتيش للعوائل العراقيّة الآمنة وهم يحملون السلاح؛ فأضحى البيت مكانًا للخوف بسبب الظروف الخارجية القاهرة، وعمق الأزمة؛ فكان البيت مخالفًا في بعض حالاته لوصف (باشلار) لَهُ بكونهِ مكان الأمن والهناءة (باشلار، ١٩٨٤، الصفحات ٣٦-٣٧)، ولاسِيَّمَا إذا كانت الإقامة في البيت بقصد النجاة من الموت، وهو ما ترويه (أورشينا) عن (ماريا) التي تحاول أَنْ تخفف من ضجرها إذا طالت أقامتها داخل البيت بالقيام بالواجبات المنزلية: ((ومن داخل هذا الحبس الجماعي الذي يلزمنا بيوتنا من الساعة الخامسة عصرًا، تنجو هي بنفسها وعقلها من الضجر، والوحدة، والحزن على زوجها عن طريق التايد والديتول والتنظيف المستمر)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٤٤).

إنَّ تحول المكان/ البيت من مكان للإقامة الاختيارية إلى مكان للإقامة الجبرية قد حمّل الشخصية على القيام بأمور روتينية؛ لكسر حاجز الوحدة والضجر؛ فتكون تلك الأعمال هروبًا من واقع حياتي تعس تعيشه الشخصية، ولاسِيَّما بعد سفر زوجها وتركها وحيدة؛ فيتأكد دلالة المكان على الغياب العائلي القسري، وقد كان لعنصر الزمان متمثلًا بالمحددات الزمنية (الخامسة عصرًا) دورًا في التعبير عن تحوّل المكان من مكان حميم إلى مكان أشبه ما يكون بالسجن الجماعي يعيش رهاب التحوّل على حدّ رؤية الشخصية إليه، ويحضر المكان/ السجن في رواية (إخوة محمد) وهو من الأمكنة المغلقة الذي يستفز الروائيين غالبًا ويمثل رمزًا للانفصال الجسدي والروحي عن العالم الخارجي؛ إذ يخضع الفلاحان (عبّاس وسفيان) في الرواية إلى ما يشبه المحو لشخصيتيهما، وتغيير حريتيهما، واستلاب وجودهما بعد خطفهما من قبل مجاميع مسلحة، وحبسهما في قبو مجهول الموقع على نحو ما ترويه (ماريا)؛ بوصفها المسرود؛ إذ تقول: ((كانا ينامان في مكان مظلم ورطب معصومي الأعين... ولا يأكلان سوى خس قذر غير مغسول... أَمّا الماء فكان مزهلجًا خابط اللون... وكانا يتلوثان بالطين عندما يتحركان من مكانهما)) (هادي، ٢٠١٨، صفحة ١٩٠).

يحمل السجن/ القبو في النصّ دلالات تشي إلى التعسف، والظلم، والقهر الممارس من طرف السجانين بحق المخطوفين؛ فهو مكان مغلق ومجهول، ويفتقد إلى أبسط شروط الحياة؛ إذ يرتبط الحبس بمعاني الرداءة التي توحي إليها ظلمته، ورطوبته، وطعامه المتسخ، وماؤه الملوث؛ ما يبعث على الإحساس بالامتعاض؛ فتجسد

الدلالات التي يطفح بها المكان حجم المعاناة التي عاشها الفلاحان بعد خطفهما من قبل جماعات مسلحة خلفها دخول الاحتلال الأمريكي للعراق.

الخاتمة:

١. برزت عناية الروائية ميسلون هادي في روايتها (إخوة محمد) على تسليط الضوء على كُلّ ما يفقده الإنسان عندما يمزق الوطن إثر العنف؛ فبرزت ثيمة الفقد لجسد الإنسان، ومكانه، وكرامته، وهويته، وحريته.
٢. قد تسبب العنف في إحداث انقسام حاد بين مكونات المجتمع العراقيّ، وقد عبّرت الروائية بتسمية روايتها بـ(إخوة محمد) عن أملها في خلق ثقافة وطنية ولحمة وطنية في سياق عراق ما بعد الاحتلال الأمريكي في محاولة لنبذها للتفكك الوطني.
٣. تمثيل العنف المادي على الجسد المنتهك من قسوة التعذيب في أقبية السجون، أو القتل العشوائي، أو القتل بالانفجارات، والتصفية الجسدية.
٤. تجلى العنف النفسي بإظهار العديد من شخصيات الرواية وهي تعيش دوامة الضغط النفسي والخوف من القتل قتلًا أو الخطف والتعرض للتعذيب؛ مِمَّا فاقمَ من إحساس العديد منها بالقلق وعدم الاستقرار وفقدان الأمان.
٥. وصل تأثير العنف على المُعنف إلى حدّ تغيير اسمه كما فعل الفلاحان (عبّاس وسفيان) أو تغيير الاسم والشكل والسيارة، كما فعل طبيب المشرحة؛ خوفًا من القتل على الهوية.
٦. كشفت الروائية عن غياب الثقافة الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان بسبب العنف، متمثلًا بحجر حرية التعبير، وإخراس الألسنة، والتصفية الجسدية، كما حصل مع الصحفية العراقيّة.
٧. اتخاذ الروائية من المدينة مسرحًا استعرضت فيه أثر العنف على الإنسان والمكان في المدينة دون ذكر القرية بعد دخول الاحتلال الأمريكي للبلاد.
٨. تطرح الروائية إشكالية التهجير الداخلي (القسري) الذي لجأ إليه العديد من سكان العاصمة بغداد، فضلًا عن الهجرة إلى الخارج بحثًا عن الأمن والاستقرار، وخلاصًا من القتل على الهوية ومحاربة الأقليات والديانات الأخرى.
٩. إنَّ ثيمة الموت وفقدان الحياة لم تطل الإنسان فحسب؛ بل شملت الأمكنة؛ بسبب عنف الاحتلال الذي تسبب بغياب معالم الأمكنة الخدمية والترفيهية، فضلًا عن فقدان النظافة والعمران.

١٠. تركيز الروائية على التحولات التي طالت الأمكنة المفتوحة في زمن الحرب، وبيان أثر العنف على المدينة وما آلت إليه طرقاتها وشوارعها وأبواب بيوتها وحدائقها، وهي تحولات أسهمت في تغريب المدينة ومحاولة طمس هويتها الحضرية المعهودة إليها.

١١. شكلت الأنسنة جانبًا مهمًا من جوانب التحوّل في دلالة المكان في رواية (إخوة محمد).

١٢. لم تأتِ الروائية على ذكر المعالم المستقصية لملامح الأمكنة في روايتها؛ بل جاء وصفها انتقائيًا معبرًا عن رؤية شخصياتها وموقفها منها في العديد من متون الرواية.

١٣. حمل السجن بوصفه من الأمكنة المعادية دلالات سلبية تعبر عن أثر عنف المحتل وما أفرزه من عصابات على الإنسان المحجوز فيها ظلمًا، فتبرز رحلة إهانة الجسد في داخلها.

١٤. هيمنة تقنية الراوي المشارك في حركة السرد في العديد من متون الرواية؛ مِمَّا أضفى على النّص قدرًا من الشاعرية المتدفقة بوصف الراوي المشارك شخصية محورية في الرواية.

١٥. لم تتطرق الروائية في روايتها إلى عنف الذكورة أو العنف الأسري أو معاناة المرأة العراقيّة باسم الرجل (زوج، أخ، أب)، وكبح الأماني؛ لانشغالها بالهم العام على الخاص.

المراجع

- ابن منظور. (٢٠٠٣). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- أحمد طالب. (٢٠٠٥). جماليات المكان في القصة القصيرة الجزائرية. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- الشريف حبيلة. (٢٠١٠). الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة. أربد: عالم الكتب الحديث.
- الطيب نوار. (٢٠٠٣). العنف والمجتمع، الملتقى الدولي بسكرة، جامعة محمد خيضر الجزائر.
- اليزا ماركس ومجموعة مؤلفين. (٢٠١٦). قاموس مصطلحات الهجرة والإعلام. عمان: منظمة العمل الدولية، الأمم المتحدة.
- جليل صليبا. (١٩٨٢). المعجم الفلسفي، ج٢. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- جميل وديع شكور. (١٩٩٧). العنف والجريمة. بيروت: الدار العربية للنشر.
- خديجة شهاب. (٢٠٠٩). حقوق الإنسان في روايات عبدالرحمن منيف، ط١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- دلال أعواج. (٢٠١٥). مفهوم العنف الأسري ضد المرأة والطفل (حقوق الإنسان). مجلة الحوار الثقافي، المجلد٦، العدد٤، الجزائر.
- سمير روحي الفيصل. (٢٠٠٣). الرواية العربية البناء والرؤيا، مقاربات نقدية. دمشق: منشورات اتحاد كُتّاب العرب.
- طالب حسين حافظ. (٢٠٠٩). العنف السياسي في العراق. مجلة دراسات دولية، العدد٢١، بغداد.
- عادل موسى عوض. (٢٠١٤). العنف الأسري وأثره في الفرد والمجتمع. جامعة أم القرى.
- عبدالرحمن الأحمد. (٢٠٢١). مظاهر العنف وصوره. مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس،، الجزء١، العدد١٣٤، مصر الجديدة.
- عبدالقادر فيدوح. (٢٠١٨). فضاء العنف في الرواية العربية الجديدة. مجلة أيوليوس، المجلد٥، العدد٩، جامعة مصر.
- عبدالكريم القريشي. (٢٠٠٤). العنف المدرسي في المؤسسات التربوية، مداخلة الملتقى الدولي بسكرة. الجزائر: مطبعة دار هدومة.
- غادة الإمام. (٢٠١٠). جماليات الصورة في فلسفة جاستوف باشلار. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
- غاستوف باشلار. (١٩٨٤). جماليات المكان. ترجمة: غالب هلسا، ط٢، بيروت: المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع.
- فارس عبدالله بدر. (٢٠١٢). ثقافة المكان وأثرها في الشخصية الروائية رواية (ليلة الملاك) أنموذجًا. مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد١١، العدد١٢، جامعة الموصل.
- فاطمة المرنيسي. (٢٠٠٩). جماليات المكان في الأدب العربي المعاصر. مجلة الدوحة، العدد١٧.
- فيصل دراج. (١٩٩٩). نظرية الرواية العربيّة والروائي، ط١. المركز الثقافي العربي.
- ليلى عبدالوهاب. (١٩٩٤). العنف الأسري الجريمة والعنف ضد المرأة. دمشق: دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمد السيد فهمي. (٢٠١٦). العنف الأسري التحديات وآليات المعالجة. مصر: المكتب الجامعي الحديث.
- محمد عابد الجابري. (١٩٩٧). الديمقراطية وحقوق الإنسان، ط٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية.
- محمد عاطف غيث. (٢٠٠٢). قاموس علم الاجتماع. الإسكندرية: دار المعرفة.

- محمد عصام حيمر. (٢٠٢٢). تجليات العنف في رواية (خرفان المولى) لياسمينة خضرا أنموذجًا. جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر.
- محمد عمران. (٢٠١٩). العنف في الرواية العربيّة ما بعد الغزو الأمريكي دراسة انتقائية. مجلة الدراسات اللّغوية والنقدية، العدد٦.
- محمود يعقوبي. (١٩٨٨). معجم الفلسفة. الجزائر: الميزان للنشر.
- ميسلون هادي. (٢٠١٨). إخوة محمد. بغداد: الذاكرة للنشر والتوزيع.
- وردة معلم. (١٩٤٥). الفضاء الروائي، المصطلح والعلاقات. مجلة الآداب، جامعة قالمة، العدد١٤.
- يوسف باسيل. (١٩٨٧). العمل العربيّ المشترك وحقوق الإنسان بين الواقع والطموح، حقوق الإنسان في الوطن العربيّ. الجزائر.